القرآن دستور تشريعي



أودع ا□ في الإنسان كثيرا ً من الغرائز التى تعتمل في النفس وتؤثر عليها في إتجاهات الحياة، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تطغى على سلطان العقل، ولا يستطيع العقل أن يكبح جماحها في كل حال. ولهذا كان لابد لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه، تهذبها وتنميها، وتقودها إلى الخير والفلاح.

والإنسان مدني بالطبع، فهو في حاجة إلى غيره، وغيره في حاجة إليه، وتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشري. وكثيرا ً ما يظلم الإنسان أخاه بدافع الأثر.. وحب السيطرة، فلو ترك أمر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم، وينظم أحوال معاشهم، ويصون حقوقهم ويحفظ حرماتهم لصار أمرهم فوضى، ولذا كان لابد لأي مجتمع بشري من نظام يحكم زمامه، ويحقق العدل بين أفراده.

وبين تربية الفرد وصلاح الجماعة وشائج قوية لا تنفصم عراها، فإن ٌ هذا يقوم على تلك، فصلاح الفرد من صلاح الجماعة وصلاح الجماعة بصلاح الفرد.

وقد عرفت البشرية في عصور التاريخ ألوانا ً مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل، ولكن واحدا ً منها لم يبلغ من الروعة، والإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي. إن "القرآن يبدأ بتربية الفرد، لأنه لبنة المجتمع ويقيم تربيته على تحرير وجدانه، وتحمله التبعة. يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد التي تخلصه من سلطان الخرافة والوهم، وتفك أسره من عبودية الأهواء والشهوات، حتى يكون عبدا ً خالصا ً []، يتجرد للإله الخالق المعبود، ويستعلي بنفسه عما سواه، فلا حاجة للمخلوق إلا لدى خالقه، الذي له الكمال المطلق، ومنه يمنح الخير للخلائق كلها. إنه خالق واحد، لا أول له ولا آخر له، قدير على كل شيء، عليم بكل شيء، محيط بكل شيء، وليس كمثله شيء.

عالم مخلوق خلقه ا□، ويرجع إلى ا□، ويفنى كما يوجد بمشيئة ا□، وهذه أكمل عقيدة في العقل وأكمل عقيدة في الدين.

(قُلُ هُوَ اللَّهَ ُ أَحَدُ * اللَّهَ ُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلَدِهْ وَلَمَ ْ يُولَدَ * وَلَمَ ْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدُ) (الإخلاص/ 1-4).

(هيُوَ الأَوْ َلُ وَالآَخِرِ ُ وَالظَّاهِرِ ُ وَالاَّبَاطِينُ وَهيُو َ بِكُلِّ ۚ شَيَّءٍ عَلَيِمِ ٌ) (الحديد/ 3). (وَلا تَدَّعُ مُعَ اللَّهَ ِ إِلهَا آخَرَ لا إِلهَ آلِهُ وَ كُلَّ ُ شَيّْءٍ هَالَلِكُ ۚ إِلا وَجَّههَ هُ لَهُ الاَّدَّكُمْ وَإِلَيَهُ ِ تَرُرْجَعُونَ) (القصص/ 88).

(ذَلَكِهُمُ اللَّهَ مُ رَبِّكُمُمْ لا إِلَهَ إِلهَ وَ خَالَقِ كُلُرِّ شَيَّءٍ) (الأنعام/ 102).

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلْ ِ سَيَّءٍ قَدَ ِيرًّا) (الأحزاب/ 27).

(وَ اللَّهُ مُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (البقرة/ 96).

(أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيِّءٍ مُحِيطٌ) (فصلت/ 54).

(لَي ْسَ كَمَيثْلَيه ِ شَي ْءَ ٌ وَهُو َ السَّمَيعِ ُ الـْبَصَير ُ) (الشوري/ 11).

(لا تُد°رِ ِكُهُ الأب°مَارُ وَهُو َ يُد°رِكُ الأب°مَارِ وَهُو َ اللَّّطَيِفُ ال°خَبَيِرُ) (الأنعام/ 103). ويؤكد القرآن الكريم وحدانية ا□ بالحجج القاطعة التي تقوم على المنطق العقلي السليم. فلا تقبل الجدال والمراء.

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهِةٌ إِلا اللَّهُ لَاهَ سَدَتَا) (الأنبياء/ 22).

(قُلُ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلَهِةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَّا لاب ْتَغَوْا إِلَى ذَيِ الْعَرْشِ سَبِيلا) (الإسراء/ 42).

وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن فى الفرائض والعبادات، كل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والجماعة واجبة على الرأي الراجح إلا لعذر، وهى شرط في الجمعة والعيدين، والذي يصلى منفرداً لا يغيب عن شعوره أصرة القربى بينه وبين الجماعة الإسلامية في أقطار الأرض، من شمال إلى جنوب، ومن مشرق إلى مغرب، لأنه يعلم أنه في تلك اللحظة يتجه وجهة واحدة مع كل مسلم على ظهر الأرض، يؤدي فريضة الصلاة ويستقبل معه قبلة واحدة، ويدعو بدعاء واحد، وإن تباعدت

بينهم الديار.

وحسب المسلم في تربيته أن يقف بين يدي ا□ خمس مرات في اليوم الواحد لتمتزج حياته بشرع ا□، ويتمثل الوازع الأعلى نصب عينيه ما بين كل صلاة وصلاة: (إ ِن ّ َ الصّ َلاة َ ت َنـْه َى ع َن ِ الـْف َحْش َاء ِ و َالـْم ُنـْك َر ِ) (العنكبوت/ 45).

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشح، وعبادة المال والحرص على الدنيا، وهي مصلحة للجماعة. فتقيم دعائم التعاون بين المجدودين والمحرومين، وتشعر النفس بتكافل الجماعة شعورا ً يخرجها من ضيق الأثرة والانفراد.

والحج سياحة ترويض النفس على المشقة، وتفتح بصيرتها على أسرار ا□ في خلقه، وهو مؤثر عالمي يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد، فيتعارفون ويتشاورون.

والصيام ضبط للنفس، وشحذ لعزيمتها، وتقوية للإرادة، وحبس للشهوات، وهو مظهر اجتماعي يعيش فيه المسلمون شهرا ً كاملا ً على نظام واحد في طعامهم. كما تعيش الأسرة في البيت الواحد.

والقيام بهذه العبادات الفمروضة يربي المسلم على الشعور بالتبعة الفردية التي يقررها القرآن وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهَيِنَةٌ) (المدثر/ 38).

(كُلُّ ُ امْرِئِ بِمَا كَسَبَ رَهِين ٌ) (الطور/ 21).

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (البقرة/ 286).

وحض القرآن على الفضائل المثلى التي تروض النفس على الوازع الديني، كالصبر والصدق والعدل والإحسان والحلم والعفو والتواضع.

ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة، لأنها نواة المجتمع، فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس وإبقاء على النوع الإنساني في تناسل طاهر نظيف.

ويقوم رباط الأسرة في الزواج على الود والرحمة والسكن النفسي والعشرة بالمعروف، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة، والوظيفة الملائمة لكل منهما.

(وَمَنْ آَيَاتَهَ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنَفُسِكُمْ أَزَوْ َاجًا لَيَسَكُنُوا إِلَيهُا وَجَعَلَ بَيَنْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (الروم/ 21).

(وَعَاشِرُوهُ ٰنَّ بِالْمُعَاْرُوفِ ِ) (النساء/ 19).

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِعَضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) (النساء/ 34).

ثم يأتي نظام الحكم الذي يسود المجتمع المسلم، وقد قرر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية في أصلح أوضاعها.

فهي حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية.

(و َشَاو َر ْه ُم ْ ف ِي الأم ْر ِ) (آل عمران/ 159).

(وَ أَ مَ رُهُمُ شُورَى بَيَ ْنَهُمْ) (الشوري/ 38).

(إِنَّ مَا الْمُؤُمْنِوُنَ إِخْوَةٌ) (الحجرات/ 10).

(قُلُ ْ يَا أَهْلُ َ الْكَيِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلَيْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ َ إِلَا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخَذَ بِعَضْنَا بِعَضْاً أَرْبَابًا مِن ْ دُونِ ِ اللَّهَ هِ) (آل عمران/ 64).

وهي حكومة تقوم على العدل المطلق الذي لا يتأثر بحب الذات، أو عاطفة القرابة، أو العوامل الاجتماعية في الغنى والفقر.

(يَا أَيَّهُا السَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالنَّقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلسَّهِ وَلَوَّ عَلَى أَننْفُسِكُمْ أَوِ النُّوَالِدَينْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنْيِّا أَوْ فَقَيِرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا النَّهَوَى أَن ْ تَعْدِلُوا وَإِنْ ْ تَلنُّوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء/ 135).

كما لا تؤثر في هذا العدل شهوة الانتقام من الأعداء المبغوضين: (ياَ أَيَّهُا الَّنَذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّاَامِينَ لَلِّهَ مُشْهَدَاءَ بِالْقِيسْطِ وَلا يَجْسْرِمَنَّ كُمْ شَنَاآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِللتَّقَوْدَى) (المائدة/ 8).

(إِنَّ َ اللَّهَ يَاَّ مُرُكُمُ ۚ أَن ْ تُؤَدَّ ُوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهَّلَهَا وَإِذَا حَكَمَّتُم ْ بَيْنَ النَّاسِ أَن ْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء/ 58).

والتشريع في الحكومة الإسلامية ليس متروكا ً للناس، فقد قرره القرآن، والخروج عنه كفر وظلم وفسق. (و َم َن ْ ل َم ْ ي َح ْ كُم ْ بِم َا أَن ْز َل َ اللَّه َ فُ أَ وُل َ غَي هُ مُ الـ ْك َافِر ُون َ) (المائدة/ 44). (و َم َن ْ ل َم ْ ي َح ْ كُم ْ بِم َا أَن ْز َل َ اللَّه َ فُ أَ وُل َ غَي هُ مُ الظّ اَل ِم ُون َ) (المائدة/ 45). (و َم َن ْ ل َم ْ ي َح ْ كُم ْ بِم َا أَن ْز َل َ اللَّ َه ُ فَ أَ وُل َ غَي هُ مُ اللَّ اللَّه َ وَم َن ْ الْحَوْمَ وَم َن ْ اللَّه َ مَ مُن اللَّه َ مَ اللَّه َ مَ اللَّه َ مَ اللَّ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ م َ اللَّه َ مَ مَ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مُن اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَ مَ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه َ مَ مَن َ اللَّه مَ مُ اللَّه مَ مُ اللَّه مَ مُن اللَّه مَ مُن اللَّه مَ مَن اللَّه مَ مُ اللّه مَ اللَّه مَا اللَّه مَ مَن مَن اللَّه مَ اللَّه مَ اللَّه مَ اللَّه مَا اللَّه مَا اللَّه مَا مَن مَن مَل مَ مَن مَا اللَّه مَ مُ اللَّهُ مَا اللَّه مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا لللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ اللَّا مَا مَن مَا اللَّهُ اللَّهُ الْمَا عُلَالَةً مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الل

وقرر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية: النفس، والدين، والعرض، والمال، والعقل ورتب عليها العقوبات المنصوصة، التي تعرف في الفقه الإسلامي بالجنايات والحدود.

(وَلَاَهُ مَا فَيِ الْقَصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَيِ الأَلْهُ بَابِ) (البقرة/ 179).

يُوق ِن ُون َ) (المائدة/ 50).

(الزَِّانِيَةُ وَالزِّاَانِي فَاجْلَدُوا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُا مِائَةَ جَلْدُوَةٍ) (النور/ 2). (وَالَّدَيِنَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمَّ لَمْ يَأْثَوُا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَاجْلَدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلَاْدَةً) (النور/ 4).

(وَ السَّارِقُ وَ السَّارِ قَةَ ُ فَاقَاْطَعُوا أَيَّدِيَهُمَا) (المائدة/ 38).

وقرر القرآن العلاقات الدولية في الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم، وهي أرفع معاملة عرفت في عصور الحضارة الإنسانية.

وخلاصة القول إنّ القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، وسيظل إعجازه التشريعي قرينا ً لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد. ولا يستطيع أحد أن ينكر أنّه أحدث في العالم أثرا ً غيّر وجه التاريخ.

المصدر: كتاب مباحث في علوم القرآن والحديث